وبـاتـتْ كـلُّـهـا تـدعـو بِـحَـقٍّ كـأنَّ لـهـا عـلـى الـحُـبْـشـانِ دَيْـنَـا

ويُروى أنَّها لم تُصِبْهم كلَّهم، لكنَّها أصابت مَن شاء اللهُ منهم. وقد تقدَّم أنَّ أميرهم رجع وشِرْذمةٌ لطيفةٌ معه، فلمَّا أَخبروا بما رَأَوْا هلكوا. فالله أعلم.

وقال ابن إسحاق[١]: لمَّا ردَّ الله الحبشةَ عن مكة، عَظَّمت العربُ قريشاً وقالوا: أَهلُ اللهِ، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم؛ فكان ذلك نعمةً من الله عليهم.

تفسير سورة «قريش»

مكيةٌ في قولِ الجمهور. ومدنيةٌ في قولِ الضحاكِ والكلبيّ[٢]، وهي أربعُ آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾

قيل: إنَّ هذه السورةَ متَّصلةٌ بالتي قبلها في المعنى؛ يقول: أهلكتُ أصحابَ الفيلِ لإيلاف قريش؛ أي: لتأتَلفَ قريش، أو لتتَّفقَ قريش، أو لكي تأمَن قريشٌ فتُؤْلِف[٣] رحلتيها. وممن عدَّ السورتين واحدةً أبيّ بن كعب، ولا فَصْلَ بينهما في مُصْحَفِه[٤]. وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمامٌ لا يَفْصِلُ بينهما، ويقرؤهما معا.

وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيُّ: صلَّينا المغربَ خَلْفَ عمرَ بنِ الخطاب ﷺ؛ فقرأ في الأولى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ وفي الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[٥].

---

(١) سلف قوله ص٤٨٩ من هذا الجزء.

(٢) زاد المسير ٩/ ٢٣٨ .

(٣) يعني تَأْلَف؛ يقال: أَلِفَ يَأْلَفُ، وآلَفَ يؤْلِف، وسيأتي.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٩ .

(٥) سلف ص٣٦٧ من هذا الجزء. قال الرازي ٣٢/ ١٠٤ : أما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين. وأما القول أن أبيًّا لم يفصل بينهما فهو معارَضٌ بإطباق الكل على الفصل بينهما.

وقال الفرَّاء: هذه السورةُ متّصلةٌ بالسورة الأولى؛ لأنه ذكَّر أهلَ مكةَ عظيمَ نعمتِه عليهم فيما فَعَلَ بالحبشة، ثم قال: «لإيلاف قُريش» أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمةً منَّا على قريش[١].

وذلك أنَّ قريشًا كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغارُ عليها ولا تُقْرَبُ في الجاهلية. يقولون: هم أهلُ بيتِ اللهِ جلَّ وعزَّ، حتى جاء صاحبُ الفيلِ ليهدمَ الكعبة، ويأخذَ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يَحُجُّ الناس إليه، فأهلكهم الله عزَّ وجلَّ، فذكَّرهم نِعْمتَه، أي: فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي: ليألَفوا الخروجَ ولا يُجْتَرأ عليهم، وهو معنى قولِ مجاهدٍ، وابنِ عباس في رواية سعيد بن جبير عنه؛ ذكره النحاس: حدَّثنا أحمد بن شُعيب، قال: أخبرني عمرو بن عليٍّ، قال: حدَّثني عامر بنُ إبراهيم ـ وكان ثقةً من خيار الناس ـ قال: حدَّثني خطاب بنُ جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدَّثني أبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: «لإيلافِ قريشٍ» قال: نعمتي على قريشٍ إيلافُهُمْ رحلةَ الشتاءِ والصيف. قال: كانوا يَشْتون بمكة، ويَصِيفون بالطائف[٢]. وعلى هذا القولِ يجوزُ الوقفُ على رؤوس الآي وإنْ لم يكن الكلام تامًّا، على ما نبيِّنه أثناء السورة.

وقيل: ليست بمتَّصلةٍ؛ لأنَّ بين السورتين: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وذلك دليلٌ على انقضاء السورةِ وافتتاح الأخرى، وأنَّ اللامَ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: «فلْيعبدوا»، أي: فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت، لإيلافهم رحلةَ الشتاء والصيف للامتيار.[٣] وكذا قال الخليل: ليست متَّصلةً، كأنه قال: آلَف الله قريشًا إيلافًا فليعبدوا ربَّ هذا البيت[٤]. وعَمِل ما بعدَ الفاء فيما قَبْلَها لأنَّها زائدةٌ غيرُ عاطفةٍ،

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي (١١٦٣٥)، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٤٨ مختصراً عن عمرو بن علي به.

(٣) أي: لجلب الطعام. القاموس (ميز). والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٥ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٥ ، وينظر الكتاب ٣/ ١٢٧ .

كقولك: زيداً فاضْرِبْ.

وقيل: اللامُ في قوله تعالى: «لإيلافِ قريش» لامُ التعجُّبِ، أي: اعْجَبوا لإيلافِ قريش [رحلةَ الشتاء والصيف، وتَرْكِهم عبادةَ ربِّ هذا البيت]؛ قاله الكسائيُّ والأخفش[١]. وقيل: بمعنى إلى[٢].

وقرأ ابن عامر: «لإلافِ قريشٍ» مهموزاً مختلَساً بلا ياء[٣]. وقرأ أبو جعفر والأعرج: «لِيْلَافِ»[٤] بلا همزٍ طَلَباً للخفَّة. الباقون: «لإيلاف» بالياء مهموزاً مُشْبَعاً، من آلَفْتُ أُولِفُ إيلافاً؛ قال الشاعر:

المُنْعِمِين إذا النجومُ تغيَّرتْ والظَّاعنينَ لرحلةِ الإيلافِ[٥]

ويقال: أَلِفْتُه إلْفاً وإلَافاً. وقرأ أبو جعفر أيضاً: «لإِلْفِ قُرَيشٍ»[٦] وقد جمعهما مَن قال:

زَعَمْتُمْ أنَّ إخوتَكُمْ قُرَيشٌ لهم إلْفٌ وليس لكم إلافُ[٧]

قال الجوهريُّ[٨]: وفلانٌ قد أَلِفَ هذا الموضعَ ـ بالكسر ـ يَأْلَفُه إلْفًا، وآلَفَه إياه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٢٩ ، وما بين حاصرتين منه، وذكر هذا القول ابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ٢٣٩ عن الكسائي والأعمش، وهو دون نسبة في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٣ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٢٦ .

(٢) والمعنى: ففَعَلْنا بأصحاب الفيل هذا الفعلَ نعمةً منا على أهل هذا البيت، إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف. ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٣ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٧ .

(٣) السبعة ص ٦٩٨ ، والتيسير ص ٢٢٥ .

(٤) النشر ٢/ ٤٠٣ .

(٥) البيت لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٥٦ و١٧٨ .

(٦) الكشاف ٤/ ٢٨٧ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٠٥ .

(٧) البيت لمسَاوِر بن هند، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٢ ، والخزانة ١١/ ٤١٩ ، ودون نسبة في دلائل الإعجاز للجرجاني ص ٢٣٦ ، وثمار القلوب للثعالبي ص ١١٧ ، والكشاف ٤/ ٢٨٧ ، والكلام منه. والشعر في هجاء بني أسد، قال التبريزي: يقول: زعمتم أنكم مثل قريش، وكيف تكونون مثلهم ولهم تجارة اليمن والشام وليس لكم ذلك.

(٨) في الصحاح (ألف).

غيرُه. ويقال أيضاً: آلَفتُ الموضعَ أُولِفه إيلافًا. وكذلك: آلَفْتُ الموضعَ أؤالفُه مُؤالفةً وإلافًا، فصار صورةُ أَفْعلَ وفاعَلَ في الماضي واحدةً.

وقرأ عِكرمةُ: «لَيَأْلَفْ» بفتح اللامِ على الأمر ـ وكذلك هو في مصحفِ ابن مسعود ـ وفتحُ لامِ الأمرِ لغةٌ حكاها ابنُ مجاهدٍ وغيره[١]. وكان عكرمةُ يَعيبُ على مَن يقرأ: «لإيلاف قريش»[٢].

وقرأ بعضُ أهلِ مكة: «إلاف قريش» واسْتَشْهَد بقولِ أبي طالبٍ يوصي أخاه أبا لهبٍ برسول الله ﷺ:

فَلا تُتْرِكَنْه ما حَيِيْتَ لِمُعْظَمٍ ... وكُنْ رجلاً ذا نَجْدةٍ وعَفافِ

تَذودُ العِدا عن عُصْبةٍ هاشميةٍ ... إلَافُهم في الناس خيرُ إلَافِ[٣]

وأمَّا قريشٌ فهم بنو النَّضْر بنِ كنانَة بنِ خزيمةَ بنِ مدرِكَة بن إلياسَ بنِ مُضَر. فكلُّ مَن كان مِن وَلدِ النضرِ فهو قرشيٌّ، دون بني كِنانَة ومَن فوقه. وربَّما قالوا: قُرَيْشِيّ، وهو القياسُ؛ قال الشاعر:

بكلِّ قُرَيْشِيٍّ عليه مَهابةٌ[٤]

فإنْ أردتَ بقريشٍ الحيَّ صَرَفْتَه، وإنْ أردتَ به القبيلةَ لم تَصْرِفْه؛ قال الشاعر:

وكَفَى قُرَيشَ المُعْضِلاتِ وسادَها[٥]

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٨٠ ، دون قوله: وكذلك هو في مصحف ابن مسعود.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦ ، وسلفت القراءة عن ابن عامر، والبيتان ذكرهما ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٢٠٨ ، وفيه أن أبا طالب قالهما في مدح عتبة بن ربيعة حين رد على أبي جهل فقال: ما تنكِرُ أن يكون محمد نبيًّا.

(٤) وعجزه: سريع إلى داعي الندى والتكرُّم. وهو في الكتاب ٣/ ٣٣٧ ، والصحاح (قرش) والكلام منه، والحلل في شرح أبيات الجمل للبطليوسي ص ٣٣٨ ، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٣٥٠ ، وشرح المفصل ٦/ ١١ . ووقع في الكتاب: بكل قريشي إذا ما لقيته...، وقال البطليوسي: لا أعلم قائله.

(٥) وصدره: غلب المساميحَ الوليدُ سماحة، كما في الصحاح (قرش)، والكلام منه، والبيت لعدي بن الرقاع، كما في الكامل للمبرد ٢/ ١٠٤٦ ، وشرح شواهد الكتاب للشنتمري ص ٤٦٠ ، والخزانة ١/ ٢٠٣ ، ودون نسبة في الكتاب ٣/ ٢٥٠ . والبيت في: مدح الوليد بن عبد الملك كما ذكر الشنتمري وقال: والمساميح جمع سَمْح على غير قياس.

والتَّقْريش: الاكتساب، وتَقَرَّشوا، أي: تَجمَّعوا. وقد كانوا متفرِّقين في غير الحرم، فجمعهم قُصَيّ بنُ كلاب في الحرم، حتى اتَّخذوه مَسْكناً؛ قال الشاعر:

أبونا قُصَيٌّ كان يُدْعَى مَجَمِّعًا ... به جَمَعَ اللهُ القبائلَ من فِهرِ[1]

وقد قيل: إنَّ قريشاً بنو فِهْر بنِ مالك بن النَّضر. فكلُّ مَن لم يَلِدْه فِهْرٌ فليس بقرشيٍّ. والأوّلُ أصحُّ وأثْبتُ. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّا ولدُ النضرِ بنِ كنانَة لا نَقْفو أُمَّنا، ولا نَنْتفي من أبينا»[2]. وقال واثلةُ بنُ الأسْقَعِ: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانةَ مِن وَلَدِ إسماعيلَ، واصْطَفَى من بني كنانةَ قريشاً، واصْطَفَى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». صحيحٌ ثابتٌ، خرَّجه البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما[3].

واختُلِف في تَسْمِيتهم قريشاً على أقوال: أحدها: لتَجَمُّعِهم بعد التفرُّقِ، والتقرُّش: التجمُّع والالتئام. قال أبو جِلْدةَ اليَشْكُريُّ:

إخوةٌ قَرَّشُوا الذنوبَ علينا ... في حديثٍ مِن دَهْرِهِمْ وقديمِ[4]

الثاني: لأنَّهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم. والتَّقرُّش: التكسُّب[5]. وقد قَرَشَ يَقْرِشُ قَرْشاً، إذا كسب وجمع. قال الفرَّاء: وبه سمِّيت قُريش[6].

الثالث: لأنَّهم كانوا يفتِّشون الحاجَّ عن[7] ذي الخَلَّةِ، فيسدُّون خَلَّته. والقَرْش: التفتيش. قال الشاعر:

---

(١) نسب لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في زهر الآداب للقيرواني ١/ ٢٥٠ ، والأوائل للعسكري ١/ ١٣ . ونسبه محمد بن حبيب في المنمق ص ٨٤ لحذافة بن غانم. ونسبه صاحب الخزانة ١/ ٢٠٣ للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب. وهو دون نسبة في سيرة ابن هشام ١/ ١٢٦ ، والاشتقاق ص ١٥٥ ، ووقع في بعض المصادر: أبوكم قصي، وفي أخرى: قصي أبوكم، وفي السيرة: قصي لعمري.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس ﷺ، وسلف ١٣/ ٧٨ .

(٣) صحيح مسلم (٢٢٧٦)، وهو عند أحمد (١٦٩٨٦)، وليس في صحيح البخاري، وسلف ١٠/ ٤٤٠ .

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٩٤ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٦ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦ .

(٦) الصحاح (قرش).

(٧) في (م): من، والمثبت من النسخ الخطية، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٦ ، والكلام منه.

أَيُّـهـا الـشـامـتُ الـمـقـرِّشُ عـنـا ... عـنـد عـمـرو فـهـلْ لـه إبـقـاءُ[١]

الرابع: ما روي: أنَّ معاوية سأل ابن عباس: لم سُمِّيتْ قريشٌ قريشاً؟ فقال: لدابَّةٍ في البحر من أقوى دوابِّه، يقال لها: القِرش، تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعْلَى. وأنشد قولَ تُبَّع:

وقـريـشٌ هـي الـتـي تـسـكـنُ الـبـحـ ... ـرَ بـهـا سـمِّـيـتْ قـريـشٌ قـريـشـا

تـأكـلُ الـغَـثَّ[٢] والـسـمِـيـنَ ولا تـتـ ... ـرك فـيـهـا لـذي جـنـاحـيـن رِيـشـا

هـكـذا فـي الـبـلاد حـيُّ قُـرَيـشٍ ... يـأكـلـون الـبـلادَ أكـلاً كـمِـيـشـا

ولـهـم آخـرَ الـزمـانِ نـبـيٌّ ... يُـكْـثِـرُ الـقـتـلَ فـيـهـم والـخُـمـوشـا[٣]

قوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾

قرأ مجاهدٌ وحميد: «إِلْفِهم» ساكنةَ اللامِ بغيرِ ياءٍ. وروي نحوُه عن ابن كثِير[٤]. وكذلك روتْ أسماءُ أنَّها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقرأ: «إِلفِهم»[٥]. وروي عن ابن عباس وغيره.

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٤٦ ، والبيت من معلقة الحارث بن حلِّزة اليشكري، وهو في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٨٧٢ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٢٢ ، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ٦٣ ، وللتبريزي ص ٢٩٩ ، وللزوزني ص ١٥٨ ، وروايته في هذه المصادر: أيها الناطق... وهل لذاك بقاء، ووقع في شروح المعلقات والمعاني الكبير: المرقِّش، والمقرِّش رواية أبي عمرو كما ذكر ابن قتيبة، وقال: هو المحرش. وقال التبريزي: المرقِّش: المزيِّن القولَ بالباطل، ويقال: إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم، ومعنى وهل لذاك بقاء: أن الباطل لا يبقى.

(٢) في النسخ: الرث، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٨٩)، والواحدي في الوسيط ٤/ ٥٥٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٠ - ٣٠١ ، ونسب المرزباني الشعر في معجم الشعراء ص ٤٣٦ للمُشَمْرِج بن عمرو الحميري، قال: وقد روي لغيره. وذكر ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٣٣٦ - ٣٣٧ هذا الخبر مختصراً وقال: وهذا الوجه عندي بارد، والشعر مصنوع جامد.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٨٠ .

(٥) أخرجه حفص الدوري في قراءات النبي ﷺ (١٣٣)، والطبري ٢٤/ ٦٤٧ ، وذكره ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٨٠ ، وفي إسناده ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب وهما ضعيفان.

وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوَةَ: «إلَافِهم» مهموزًا مختلَساً بلا ياءٍ[١].

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «إئْلافهم» بهمزتين، الأولى مكسورةٌ والثانيةُ ساكنة. والجمعُ بين الهمزتين في الكلمتين شاذٌّ[٢].

الباقون: «إيلافهم» بالمدِّ والهمز، وهو الاختيارُ، وهو بدلٌ من الإيلاف الأوّلِ للبيان. وهو مصدرُ آلَفَ: إذا جَعَلْته يَأْلَفُ. وأَلِفَ هو إلْفًا؛ على ما تقدَّم ذِكْرُه من القراءة، أي: وما قد أَلِفوه من رحلةِ الشتاءِ والصيف.

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: «إيلافِهم رِحلةَ الشتاء والصيف» قال: لا يشُقُّ عليهم رحلةُ شتاءٍ ولا صيفٍ، منَّة منه على قريش[٣].

وقال الهَرَوِيُّ وغيره: وكان أصحابُ الإيلافِ أربعةَ إخوةٍ: هاشمٌ، وعبدُ شمسٍ، والمطَّلبُ، ونوفلٌ، بنو عبد مناف. فأمَّا هاشمٌ فإنَّه كان يُؤلفُ مَلِك الشام[٤]؛ أي: أخذ منه حبلاً وعهداً يأمنُ به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبدُ شمسٍ كان يُؤلفُ إلى الحَبشة. والمطَّلبُ إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. ومعنى يُؤلفُ: يُجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمَّوْن المُجِيرين. فكان تجارُ قريش يختلفون إلى الأمصار بحَبْلِ هؤلاء الإخوة، فلا يُتَعَرَّضُ لهم[٥].

قال الأزهريُّ: الإيلاف: شبهُ الإجازةِ بالخَفَارة[٦]؛ يقال: آلَفَ يُؤلِف وألَّف

---

(١) النشر ٢/ ٤٠٣ .

(٢) قال ابن مجاهد في السبعة ص٦٩٨ : قرأ عاصم في رواية أبي بكر: «لإئلاف قريش إئلافهم» بهمزتين الثانية ساكنة، ثم رجع عنه فقرأ مثل حمزة بهمزة واحدة. اهـ. وقراءة حمزة: «لإيلاف قريش إيلافهم». والقراءة بهمزتين ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٨٠ .

(٣) ذكره البخاري معلقاً قبل الحديث (٤٩٦٤)، ووصله الطبري ٢٤/ ٦٤٨ .

(٤) في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧٩ (والكلام فيه بنحوه): يؤلف إلى الشام.

(٥) بنحوه في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٧٩ .

(٦) لم نقف عليه في تهذيب اللغة، وقاله الصَّغاني في العباب (ألف)، ووقع في (ظ) و(م) و(ي): الإجارة، بدل: الإجازة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في العباب والقاموس والتاج (ألف). والخَفَارة: الأمان. المعجم الوسيط (خفر).

يؤلِّف: إذا أجاز[١] الحمائل بالخَفارة. والحمائل: جمع حَمولة[٢]. قال[٣]: والتأويل: أنَّ قُريشاً كانوا سكَّان الحرم، ولم يكن لهم زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ، وكانوا يَمِيرون في الشتاء والصيف آمنين، والناسُ يُتَخَطَّفون مِن حولهم، فكانوا إذا عَرَض لهم عارِضٌ قالوا: نحن أهلُ حَرَمِ الله، فلا يَتَعَرَّضُ الناسُ لهم.

وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره[٤]: حدَّثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدِّمياطيِّ، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: «لإيلافِ قُرَيْش إلفِهم رحلةَ الشتاء والصيف»: وذلك أنَّ قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصةٌ، جرى هو وعيالُه إلى موضعٍ معروف، فضربوا على أنفسهم خِباءً فماتوا، حتى كان عمرو بنُ عبد منافٍ، وكان سيداً في زمانه، وله ابن يقال له: أسَد، وكان له تِرْبٌ من بني مخزوم يحبُّه ويلعبُ معه. فقال له: نحن غداً نَعْتفِد[٥]. قال ابن فارس: هذه لفظةٌ في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء، فإنْ كانت بالراء فلعلَّها من العَفَر، وهو التراب، وإن كانت بالدَّال، فما أدري معناها، وتأويلُه على ما أظنُّه: ذهابُهم إلى ذلك الخباءِ، وموتُهم واحداً بعد واحدٍ[٦].

قال: فدخل أسدٌ على أمِّه يبكي، وذَكَر ما قاله تِرْبُه. قال: فأرسلتْ أمُّ أسدٍ إلى أولئك بشحمٍ ودقيق، فعاشوا به أياماً. ثم إنَّ تِرْبَه أتاه أيضاً فقال: نحن غداً نَعتفِد[٧]، فدخل أسدٌ على أبيه يبكي، وخبَّره خَبَرَ تِرْبِه، فاشتدَّ ذلك على عمرو بن عبد مناف،

---

(١) في النسخ عدا (د): أجار، والمثبت من (د).

(٢) وهي ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار ونحوه، والأحمالُ بعينها. القاموس (حمل).

(٣) هو الصَّغاني في العباب (ألف).

(٤) واسمه: جامع التأويل في تفسير القرآن، كما في طبقات المفسرين للداودي ١/ ٦٠ .

(٥) في النسخ الخطية: نعتفر، والمثبت من (م)، وينظر تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٥ ، وأساس البلاغة (عفد).

(٦) وذكر هذا المعنى ـ في نعتفد ـ الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٥ ، والزمخشري في أساس البلاغة (عفد).

(٧) في النسخ الخطية (نعتفر).

فقام خطيباً في قريش، وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنَّكم أَحْدَثْتُم حَدَثاً تَقِلُّون فيه وتكثرُ العرب، وتَذِلُّون وتَعِزُّ العرب، وأنتم أهلُ حرمِ اللهِ جلَّ وعزَّ، وأشرفُ ولدِ آدَمَ، والناسُ لكم تَبَعٌ، ويكاد هذا الاعتفادُ يأتي عليكم. فقالوا: نحن لك تَبَعٌ. قال: ابتدئوا بهذا الرجل ـ يعني أبا تِرْبِ أسد ـ فأَغْنُوه عن الاعتفاد، ففعلوا. ثم إنَّه نحر البُدْنَ، وذبح الكِبَاشَ والمَعْزَ، ثم هَشَم الثَّرِيد، وأطعم الناس، فسمِّي هاشماً. وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هَشَم الثَّريدَ لقومه ورجالُ مكةَ مُسْنِتون عِجافُ[1]

ثم جمع كلَّ بني أبٍ على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغنيُّ قَسَمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرُهم كغنيِّهم، فجاء الإسلامُ وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أبٍ أكثرَ مالاً ولا أعزَّ من قريش، وهو قولُ شاعرِهم:

والخالطون فقيرَهم بغنيِّهم حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي[2]

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسولَه محمداً ﷺ، فقال: «فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ الذي أَطعمهم مِن جوع[3] وآمنهم مِن خوفٍ» أنْ تكثُر العربُ ويَقِلُّوا.

قوله تعالى: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ «رِحلَةَ» نصب بالمصدر، أي: ارتحالهم رِحلةَ، أو بوقوع «إيلافهم» عليه. أو على الظرف. ولو جعلتَها في محلِّ الرفع، على

(١) سلف ٩/ ٣٠٤ عن عبد الله بن الزبعرى، وهو في ملحقات ديوانه ص ٥٣ ، ونسب لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في المنمق لابن حبيب ص ١٢ ، والاشتقاق ص ١٣ . وأسنتوا: أجدبوا. القاموس (سنت).

(٢) البيت لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في سيرة هشام ١/ ١٧٨ ، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٦٨ ، والحماسة البصرية ١/ ١٥٥ ، وقال البصري: ويروى لابن الزبعرى، والأول أكثر. وهو في ملحقات ديوان ابن الزبعرى ص ٥٤ . وقد ذكر هذا الخبر بنحوه عن ابن عباس الرازي ٣٢/ ١٠٧ ، وأخرجه الزبير بن بكار بنحوه أيضاً عن عمر بن عبد العزيز، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٧ .

(٣) بعدها في (م): بصنيع هاشم.

معنى: هما رِحلةُ الشتاءِ والصيف، لجاز. والأوّل أولى.

والرحلةُ: الارتحالُ، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنَّها بلادٌ حاميةٌ، والرحلةُ الأخرى في الصيف إلى الشام، لأنَّها بلادٌ باردة[١].

وعن ابن عباس أيضاً قال: كانوا يَشْتون بمكةَ لدِفئها، ويَصِيفون بالطائف لهوائها[٢]. وهذه من أجلِّ النعم أن يكون للقوم ناحيةٌ حرٌّ تدفعُ عنهم بردَ الشتاء، وناحيةُ بردٍ تدفع عنهم حرَّ الصيف، فذكَّرهم الله تعالى هذه النعمة. وقال الشاعر:

تَشْتي بمكةَ نَعْمَةً ومَصِيفُها بالطَّائِف[٣]

وهنا أربعُ مسائل:

الأولى: اختار القاضي أبو بكر بن العربيِّ[٤] وغيرُه من العلماء أنَّ قولَه تعالى: «لإيلافِ» متعلِّقٌ بما قبله. ولا يجوزُ أن يكون متعلِّقاً بما بعده، وهو قولُه تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ قال: وإذا ثبت أنَّه متعلِّقٌ بالسورة الأخرى ـ وقد قُطع عنه بكلامٍ مبتدأ، واستئنافِ بيانٍ، وسطرِ «بسم الله الرحمن الرحيم» ـ فقد تبيَّن جوازُ الوقفِ في القراءة للقرَّاء قبل تمامِ الكلام، وليست المواقفُ التي ينزعُ[٥] بها القُرَّاء شرعاً عن النبيِّ ﷺ مرويًّا، وإنَّما أرادوا به تعليمَ الطلبةِ المعانيَ، فإذا عَلِموها وقفوا حيث شاؤوا. فأمَّا الوقفُ عند انقطاع النَّفَسِ فلا خلافَ فيه، ولا تُعِدْ ما قبلَه إذا

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٢ عن الكلبي وابن زيد، وذكره ابن عطية بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سلف ص٤٩٦ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٨ ، والبيت لمحمد بن عبد الله النميري، كما في معجم الشعراء للمرزباني ص٣٤٢ ، وأخبار النساء لابن الجوزي ص ٢٤ ، ومعجم البلدان ٤/ ١٢ ، ووقع في هذه المصادر عدا النكت والعيون: تشتو بمكة...، قال السمين في عمدة الحفاظ ٢/ ١٣٠٤ : الظاهر أن لامه واو، فيقال: شتا يشتو، وقد ذكره الهروي في مادة (شتو)، وإن كان الراغب قد ذكره في مادة (شتي).

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٩ .

(٥) في النسخ: ينتزع، والمثبت من أحكام القرآن.

اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك[١] نَفَسُك. هذا رأيي فيه، ولا دليلَ على ما قالوه بحالٍ، ولكنِّي أعتمِدُ الوقفَ على التمام، كراهيةَ الخروجِ عنهم.

قلت: ومن الدليل على صحة هذا، قراءةُ النبيِّ ﷺ: «الحمد لِلهِ رب العَالَمِين» ثم يقف، «الرحْمَنِ الرَّحِيم» ثم يقف. وقد مضى في مُقَدِّمة الكتاب[٢].

وأجمع المسلمون أنَّ الوقف عند قوله: «كَعَصْفٍ مَأْكولٍ» ليس بقبيح. وكيف يقال إنَّه قبيحٌ وهذه السورةُ تُقْرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخلَّلُها مع قطعِ القراءةِ أركانٌ؟ وليس أحدٌ من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلَّةُ فيه إلَّا أنَّ قوله تعالى: «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكولٍ» انتهاءُ آية. فالقياسُ على ذلك: ألَّا يمتنعَ الوقفُ عند أعجازِ الآياتِ سواءٌ كان الكلامُ يتم، والغرضُ ينتهي، أولايتم، ولا ينتهي. وأيضًا فإنَّ الفواصل حِليةٌ وزِينةٌ للكلام المنظوم، ولولاها لم يَتَبَيَّن المنظومُ من المنثور. ولا خفاءَ أنَّ الكلام المنظومَ أحسن، فثبت بذلك أنَّ الفواصل من محاسن الكلام المنظوم، فَمَن أَظْهَرَ فواصلَه[٣] بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنَه، وتركُه[٤] الوقوفَ يُخفي تلك[٥] المحاسن، ويُشَبِّه المنظوم بالمنثور، وذلك إخلالٌ بحقِّ المقروء.

الثانية: قال مالك[٦]: الشتاءُ نصفُ السنة، والصيفُ نصفُها، ولم أَزَلْ أرى ربيعةَ ابنَ أبي عبد الرحمن ومَن معه لا يخلَعون عمائمهم حتى تطلع الثُّريَّا، وهو يومُ التاسع

(١) في النسخ الخطية: به، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) ١/ ١٩.

(٣) في (د) و(ز) و(ي): مواصلة.

(٤) في (م): وترك.

(٥) في (ز) و(ظ) و(ي): ذلك، وفي (د): على ذلك.

(٦) من هذا الموضع إلى آخر المسألة الرابعة نقله المصنف من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٩ - ١٩٧٠.

عَشَرَ من بشنس[١]، وهو يومُ خمسةٍ وعشرين من عددِ الرومِ أو الفرس. وأراد[٢] بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأنَّ طلوع الثريا أوّلُ الصيفِ ودُبُر الشتاء. وهذا ممَّا لا خلافَ فيه بين أصحابه عنه. وقال عنه أشهبُ وحده: إذا سقَطَتِ الهَقْعَة[٣] نقصَ الليل.

فلمَّا جُعل طلوعُ الثريا أوّلَ الصيف، وَجَبَ أن يكون له في مُطْلَقِ السنةِ[٤] ستةُ أشهرٍ، ثم يُستقبل الشتاءُ من بعد ذهاب الصيف ستةَ أشهر. وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمَّن حلف ألَّا يكلِّم امْرَأً حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلِّمه حتى يَمضيَ سبعةَ عَشَرَ من هتور[٥]. ولو قال: حتى يدخل الصيف، لم يكلِّمه حتى يمضي سبعةَ عَشَرَ من بشنس. قال القُرْطيُّ[٦]: أمَّا ذِكْرُ هذا عن محمد في بشنس[٧] فهو سهوٌ، إنَّما هو تسعة عشر من بشنس؛ لأنَّك إذا حسبتَ المنازل على ما هي عليه، من ثلاثَ عَشْرَةَ ليلةً كل منزلة، علمت أنَّ ما بين تسع عشرةَ من هتور[٨] لا تنقضي منازلُه إلَّا بدخول تسع عشرة من بشنس. والله أعلم.

الثالثة: قال قومٌ: الزمانُ أربعةُ أقسام: شتاءٌ، وربيعٌ، وصيفٌ، وخرِيف.

---

(١) في النسخ الخطية: بشانس، والمثبت من (م) وأحكام القرآن، وهو من شهور القبط، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٢/ ٣٨٧ : ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهور السريان، وآخره التاسع والعشرون من أيار منها.

(٢) في النسخ: وأرى: وهو موافق لإحدى نسخ أحكام القرآن مذكورة في الحاشية، والمثبت من مطبوع أحكام القرآن.

(٣) منزل من منازل القمر، وهي رأس الجوزاء، وصورتها ثلاثة أنجم صغار مثلَّثة، وهي آخر أنواء الخريف. ينظر العمدة ٢/ ٢٥٦ ، والأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٨ ، وينظر كذلك ما سلف ١٧/ ٤٤٦ .

(٤) في مطبوع أحكام القرآن: وجب أن يكون له شطر السنة.

(٥) في (م): هاتور، وهو من شهور القبط، ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول، وآخره الخامس والعشرون من تشرين الثاني. صبح الأعشى ٢/ ٣٨٤ .

(٦) في (ظ) و(م): القرظي، وهو تصحيف. والقُرْطيُّ هو أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان الفقيه المالكي. ينظر الأنساب ١٠/ ١٠٠ ، والديباج المذهب ٢/ ١٩٤ .

(٧) من قوله: قال القرطي، إلى هذا الموضع ليس في مطبوع أحكام القرآن.

(٨) في (م): هاتور.

وقال قومٌ: هو شتاءٌ، وصيفٌ، وقَيظٌ، وخريف. والذي قاله مالكٌ أصح؛ لأنَّ قسمة اللهِ للزمان[١] قسمين ولم يجعل لهما ثالثًا.

الرابعة: لمَّا امتنَّ الله تعالى على قريش برحلتين، شتاءً وصيفاً، على ما تقدَّم، كان فيه دليلٌ على جوازِ تصرُّفِ الرجلِ في الزمانين بين محلَّين، يكون حالُهما في كلِّ زمانٍ أنعمَ من الآخر، كالجلوس في المجلس البَحْريِّ في الصيف، وفي القِبْليِّ في الشتاء، وفي اتِّخاذ البادَهنجات[٢] والخيشِ للتبريد، واللبدِ واليانوسةِ للدِّفْء.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده لأَجْلِ إيلافِهم رحلتين. ودخلت الفاءُ لأَجْلِ ما في الكلام من معنى الشرط؛ لأنَّ المعنى: إمَّا لا فلْيعبدوه لإيلافهم، على معنى أنَّ نعم الله تعالى عليهم لا تُحْصَى، فإنْ لم يعبدوه لسائرِ نعمه، فليعبدوه لشأنِ هذه الواحدة، التي هي نعمةٌ ظاهرة[٣].

والبيت: الكعبة. وفي تعريف نفسِه لهم بأنَّه ربُّ هذا البيتِ وجهان: أحدهما: لأنه كانت لهم أوثانٌ فميَّز نفسَه عنها. الثاني: لأنَّهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب؛ فذَكَر لهم ذلك، تذكيراً لنعمته[٤].

وقيل: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ» أي: ليألَفوا عبادةَ ربِّ الكعبة، كما كانوا يألَفون الرحلتين[٥]. قال عكرمة: كانت قريشٌ قد أَلِفوا رحلةً إلى بُصْرَى ورحلةً إلى اليمن، فقيل لهم: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ» أي: يقيموا بمكة[٦]. رحلةُ الشتاءِ إلى

---

(١) في أحكام القرآن: لأجل قسمة الله الزمان. وفي اللباب ٢٠/ ٥٠٩ نقلاً عن القرطبي: لأن الله قسم الزمان.

(٢) البادهنج معرب بادخون أو باكير وهو نافذة تفتح في السقف لعبور الهواء، أو المنفذ الذي يجيء منه الريح، وسماه بعضهم: راووق النسيم. والراووق: المصفاة. ينظر شفاء الغليل للشهاب الخفاجي ص٧٠ ، والمعجم الذهبي ص٩١ و٩٢ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٨٧ .

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٣٤٨ (والكلام منه): بنعمته.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤٨ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥١ .

اليمن، والصيف إلى الشام.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: بعدَ جوع ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، قال ابن عباس: وذلك بدعوةِ إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦][(١)].

وقال ابن زيد: كانت العرب يُغيرُ بعضُها على بعضٍ، ويَسْبي بعضُها من بعضٍ، فأَمِنتْ قُرَيشٌ من ذلك لمكان الحرم، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧][(٢)].

وقيل: شقَّ عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحَبَشَةِ أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن، فحملوه، فخافت قريشٌ منهم، وظنُّوا أنهم قَدِموا لحربهم، فخرجوا إليهم مُتَحَرِّزين، فإذا هم قد جَلَبوا إليهم الطعامَ، وأعانوهم[(٣)] بالأقوات[(٤)]. فكان أهلُ مكة يخرجون إلى جُدَّة بالإبل والحُمُر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين.

وقيل: هذا الإطعامُ هو أنَّهم لمَّا كذَّبوا النبيَّ ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللهمَّ اجْعَلْها عليهم سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسفَ»[(٥)] فاشتدَّ القَحْطُ، فقالوا: يا محمدُ، ادعُ الله لنا فإنَّا مؤمنون. فدعا فأَخصبَتْ تَبَالةُ وجُرَشُ من بلاد اليمن، فحملوا الطعامَ إلى مكة، وأَخْصَبَ أهلها.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٣ و٦٥٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٥٥.

(٣) في (م): وأغاثوهم.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٤٨، وأولُه: أن جوعاً أصابهم في الجاهلية فألقى الله في قلوب الحبشة...

(٥) أخرجه أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٤/ ٣٠٤.

وقال الضحَّاك والربيع وشَرِيكٌ وسفيان: «وآمنهم مِنْ خَوْفٍ» أي: من خوفِ الجُذام، لا يصيبُهم ببلدهم الجُذام[١].

وقال الأعمش: «وآمنهم مِنْ خَوْفٍ» أي: من خوفِ الحَبَشةِ مع الفيل[٢].

وقال عليٌّ ﷺ: وآمنهم مِن أن تكون الخلافةُ إلَّا فيهم[٣].

وقيل: أي: كفاهم أخذَ الإيلافِ من الملوك. فالله أعلم، واللفظُ يعم.

تفسير سورة «الماعون»

وهي مكيةٌ في قول عطاءٍ وجابرٍ وأحدِ قولي ابنِ عباس، ومدنِيةٌ في قولٍ له آخرَ، وهو قولُ قتادةَ وغيرِه[٤]. وهي سبعُ آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالجزاء والحساب في الآخرة، وقد تقدَّم في «الفاتحة»[٥]. و«أَرَأَيت» بثباتِ[٦] الهمزةِ الثانية؛ إذ لا يُقال في

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٣١ ، وأخرجه الطبري عن الضحاك وسفيان.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٩ . وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٩ . قال الألوسي في روح المعاني ٣٠/ ٢٤١ : وهذا من البطلان بمكان لا يخفَى.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٥٠ دون ذكر قول ابن عباس الأول، وأخرج هذا القول عن ابن عباس ابن مردويه، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٩٩ .

(٥) ١/ ٢٢١ .

(٦) في (م): بإثبات.